

اجتهادات بين الفكر والعلم

كان بين رُواد المنهج العلمى الحديث فى عصر النهضة الأوروبية من جمعوا بين المعرفة الفكرية – الفلسفية والعلمية كما ورد فى اجتهاد الأرسى. وهؤلاء هم من بنوا الجسر بين مرحلتى النهضة التى امتدت بين القرنين الـ 15 و 17 والتنوير فى القرن الـ 18.

ويعتقد غير قليل من دارسى تلك الفترة المفصلية فى تاريخ البشرية أن رينيه ديكارت كان أهم من شيدوا ذلك الجسر. ولكنه فى الحقيقة كان واحدًا من أبرز بُناته. فقد أسهم آخرون فى هذا الانتقال كُلُّ بطريقته. ولعل أهمهم إسحق نيوتن الذى قام بدور تاريخى فى بناء الجسر المؤدى إلى مرحلة التنوير، من زاوية تأثير كشفه العلمى الكبير فى تفكير فلاسفة مرحلة التنوير بدرجات مختلفة.

فقد لعب رائد علم الفيزياء دورًا تجاوز الاختراق العلمى الذى حققه، إذ أثر فى تفكير هؤلاء الفلاسفة وفى مقدمتهم إيمانويل كانط، وأسهم بالتالى فى دعم الارتباط بين العلم والفكر فى مرحلة كانت البشرية فى حاجة إليهما خذ مثلاً كتابه (المبادئ الرياضية للفلسفة .معًا، كما إلى الفنون أيضًا الطبيعية)، الذى عمّق فيه هذه المبادئ مع تبسيطها فى الوقت نفسه ليتيسر درسها، ومن ثم البناء عليها، وصاغ قوانين الحركة التى تُعد أساس الميكانيكا الكلاسيكية.

ونجد هنا اختلافًا بين افتراضين، أولهما أن إنجاز نيوتن كان قطعًا مع كل ما سبقه، والثاني أن الاختراق الذي حققه جاء في سياق ما يراه بعض دارسيه خط أفكار بدأ مع أرسطو وصولاً إليه بعد أن قُطع مرات عبر هذا التاريخ.

ولكن ما لا يوجد خلاف عليه تقريبًا هو أثر نيوتن في تفكير عدد من أبرز مفكرى مرحلة التنوير، إذ يتفق كُثُرٌ عليه، وإن اختلفوا على نوعه ومداه، خاصةً على اعتقاد البعض أنه ارتبط بما يُسمونه الانتقال من ذهنية الحساب إلى عقلية الفيزياء. وأيًا كان الأمر، فقد وضع إيمانويل كانط أول أساس أبستمولوجى مُحدد المعالم للعلم، انطلاقًا من تفاعله مع إنجاز نيوتن. وهكذا كانت العلاقة الوثيقة بين العلم والفكر في زمن سادته تفاعل عظيم لم يستمر طويلا. وهذا حديث آخر ربما نعود إليه لاحقًا.